

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٦ - سُورَةُ الْوَاقِعَةِ

سميت بها لأنها مملوءة بوقائع القيامة ، التي هي الواقعة العظمى ، لوقوعها في أشد الأحوال - قاله المهايي - .

وهي مكية . وآياتها ست وتسعون .

وعن ابن عباس قال : قال أبو بكر : يا رسول الله ! قد شئت ! قال : شيتني هود والواقعة والمرسلات ، وعمّ يتساءلون وإذا الشمس كورت - رواه الترمذي^(١) وقال : حسن غريب .

وعن جابر بن سمرة قال : كان رسول الله ﷺ يصلي الصلوات كنعو من صلاتكم التي تصلون اليوم ، ولكنه كان يخفف ، كانت صلاته أخف من صلاتكم . وكان يقرأ في الفجر الواقعة ونحوها من السور .

(١) أخرجه الترمذي في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٥٦ - سورة الواقعة ، ٦ - حدثنا أبو كريب . حدثنا معاوية بن هشام .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ)

[٢] (لَيْسَ لَوْعَتِهَا كَاذِبَةٌ)

[٣] (خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ)

« إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ » أى نزلت وجاءت . و(الواقعة) علم بالغلبة على القيامة، أو منقول، سميت بذلك لتحقيق وقوعها ، وكأنه قيل : إذا وقعت التى لا بد من وقوعها . واختيار (إذا) مع صيغة المضى ، للدلالة على ما ذكر . « لَيْسَ لَوْعَتِهَا كَاذِبَةٌ » أى كذب أو تكذيب . وقد جاء المصدر على زنة (فاعلة) كالعاقبة ، والعافية . واللام للاختصاص . أو المعنى : ليس حين وقعها نفس كاذبة ، أى تكذب على الله ، أو تكذب فى نفيها . واللام للتوقيت . قال الشهاب : و(الواقعة) السقطة القوية ، وشاعت فى وقوع الأمر العظيم . وقد تخص بالحرب ، ولذا عبر بها هنا . « خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ » أى تخفض الأشياء إلى الدرجات ، وترفع السعداء إلى الدرجات . وقيل ، الجملة مقررة لعظمة الواقعة على طريق الكناية ، لأن من شأن الوقائع العظام أنها تخفض قوماً وترفع آخرين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا)

[٥] (وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا)

[٦] (فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا)

« إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا » أى زلزلت زلزلا شديداً « وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا »

أى فتنت، أو سيقت وأذهبت، كقوله^(١) (وَسَيِّرَتِ الْجِبَالُ) «فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا»
أى متفرقاً . قال قتادة : الهباء ما تذرّوه الريح من حطام الشجر . وقال غيره : هو ما يرى من
الكوة كهياة الغبار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً)

[٨] (فَأَصْحَبُ الْمِئْمَنَةِ مَا أَصْحَبُ الْمِئْمَنَةِ)

[٩] (وَأَصْحَبُ الْمُشْمَةِ مَا أَصْحَبُ الْمُشْمَةِ)

[١٠] (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ)

[١١] (أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ)

[١٢] (فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ)

« وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا » أى أصنافاً « ثَلَاثَةً * فَأَصْحَبُ الْمِئْمَنَةِ مَا أَصْحَبُ الْمِئْمَنَةِ *
وَأَصْحَبُ الْمُشْمَةِ مَا أَصْحَبُ الْمُشْمَةِ » تقسيم وتنويع للأزواج الثلاثة ، مع الإشارة
الإجمالية إلى أحوالهم قبل تفصيلها . وإطلاق (الميمنة) و (المشامة) اللتين هما الجهتان المعروفتان ،
على منزلة السعداء الذين هم الأبرار والمصلحون من الناس ، وعلى دركة الأشقياء الذين هم الأشرار
والمفسدون من الناس - أصله من تيمّن العرب باليمين ، وتشاؤمهم بالشمال ، كما فى السائح
والبسارح ، وقولهم للرفيع : هو منى باليمين ، وللوضيع : هو منى بالشمال ، تجوزاً به ،
أو كفاية به عما ذكر .

وقيل : الميمنة والمشامة بمعنى اليمن والشؤم ، فليس بمعنى الجهة ، بل بمعنى البركة وضدها ،

(١) [٧٨ / النبأ / ٢٠] .

لما عاد عليهم من أنفسهم وأفعالهم . وفي جملة الاستفهام إشارة إلى ترقى أحوالها في الخير والشر ، تعجباً منه .

« وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ » أى الذين سبقوا إلى الإيمان والطاعة ، بعد ظهور الحق ، وأوذوا لأجله ، وصبروا على ما أصابهم ، وكانوا الدعاة إليه .

فإن قيل : لم خولف بين المذكورين فى السابقين ، وفى أصحاب اليمين ، مع أن كل واحد منهما إنما أريد به التعظيم والتهويل لحال المذكورين ؟

فنقول : التعظيم المؤدى بقوله (السَّابِقُونَ) أبلغ من قربنه . وذلك أن مؤدى هذا أن أمر السابقين ، وعظمة شأنه ، مالا يكاد يخفى . وإنما تحير فهم السامع فيه مشهور . وأما المذكور فى قوله (وَأَصْحَابُ الْيَمِينَةِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينَةِ) فإنه تعظيم على السامع بما ليس عنده منه علم سابق . ألا ترى كيف سبق بسط حال السابقين بقوله (أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ) فجمع بين اسم الإشارة المشار به إلى معروف ، وبين الإخبار عنه بقوله (الْمُقَرَّبُونَ) معرفاً بالألف واللام العهدية ؟ وليس مثل هذا مذكوراً فى بسط حال أصحاب اليمين ، فإنه مصدر بقوله (فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ) - أفاده الناصر - .

و (السَّابِقُونَ) الثانى إما خبر ، أى الذين عرفت حالهم ، واشتهرت أوصافهم على حدّ (وشعرى شعرى) ، أو تأكيد ، والخبر قوله :

« أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ » أى الذين يقربهم الله منه بإعلامنازلمهم « فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (ثُلَّةٌ مِّنَ الْأُولَئِينَ)

[١٤] (وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ)

« ثُلَّةٌ مِّنَ الْأُولَئِينَ » أى هم جماعة كثيرة من الذين سبقوا ، لرسوخ إيمانهم ، وظهور أثره فى أعمالهم من العمل الصالح ، والدعوة إلى الله ، والصبر على الجهاد فى سبيله ،

إلى غير ذلك من المناقب التي كانت ملكات لهم. « وَقَلِيلٌ مِّنَ الْأَخْرَيْنَ » أى الذين جاءوا من بعدهم فى الأزمنة التى حدثت فيها الغير، وتبرجت الدنيا لخطاياها، ونسى معها سر البعثة، وحكمة الدعوة. فما أقول الماشين على قدم النبى صلوات الله عليه وصحابه ! لاجرم أنهم وقتئذ الغرباء، لقلتهم.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ)

[١٦] (مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَلِّبِينَ)

[١٧] (يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ)

[١٨] (بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ)

[١٩] (لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ)

[٢٠] (وَقَفَاحَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ)

[٢١] (وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ)

[٢٢] (وَخُورٍ عَيْنٍ)

[٢٣] (كَأَمْثَلِ اللَّوْثِ الْمَكْنُونِ)

[٢٤] (جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[٢٥] (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا)

[٢٦] (إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا)

« عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ » أى مصفوفة، أو مشبكة بالدر والياقوت أو الذهب. و(الوَضْنُ)

التشبيك والنسج . « مُتَّكِئِينَ عَلَيْهِا مُتَّقِلِينَ » أى بوجوههم ، متساوين فى الرتب ، لا حجاب بينهم أصلاً . « يَطُوفُ عَلَيْهِمْ » أى للخدمة « وَلِدَانُ مُتَخَلِّدُونَ » أى مَبْقُونَ على سنّ واحدة لا يموتون . « يَا كُؤَابِ وَأَبَارِيقَ » أى حال الشرب . و (الكوب) إناء لا عروة ولا خرطوم له . و (الإبريق) إناء له ذلك . « وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ » أى خمر جارية . ثم أشار إلى أنها لذة كلها ، لا ألم معها ولا خمار « لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا » أى لا يصدر عنها صداعهم لأجل الخمار ، كخمر الدنيا . والصداع : وجع الرأس . وقرئ بالتشديد من التفعل . أى لا يتفرقون . « وَلَا يُزِفُونَ » بكسر الزاى وفتحها . أى لا تذهب عقولهم بسكرها . « وَفَلَكِهِم مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ » أى يختارون ويرتضون . وأصله أخذ الخيار والخير . قال ابن كثير : وهذه الآية دليل على جواز أكل الفاكهة على صفة التخيّر لها ، ثم استشهد له بحديث عكراش لما أتى النبي ﷺ بثيرد ، وأقبل عكراش يخبط بيده فى جوانبه ، فقبض النبي ﷺ بيده وقال : يا عكراش ! كل من موضع واحد ، فإنه طعام واحد . ثم أتى بطبق فيه تمر أو رطب ، فجعل عكراش يأكل من بين يديه ، وجالت يد رسول الله ﷺ فى الطبق فقال : يا عكراش ! كل من حيث شئت ، فإنه غير لون واحد - رواه الترمذى ^(١) واستغربه - .

« وَلَحْمٍ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ » أى يتمنون . « وَحُورٌ عِينٌ » أى أزواج بيض واسمة الأعين . عطف على (وَلِدَانُ) أو مبتدأ محذوف الخبر . أى وفيها ، أو ولهم حور . وقرئ بالجرح عطف على (يَا كُؤَابِ) . قال الشهاب : وحينئذ إما أن يقال (يَطُوفُ) بمعنى ينعمون مجازاً أو كناية ، على حدّ قوله ^(٢) :

* وَزَجَّجْنَ الْحَوَاجِبَ وَالْعُمُونا *

(١) أخرجه فى : ٢٣ - كتاب الأطعمة ، ٤١ - باب ما جاء فى التسمية فى الطعام .

(٢) صدره : * إِذَا مَا الْغَايَاتُ بَرَزْنَ يَوْمًا *

استشهد به فى اللسان ، وقال : إنما أراد (وَكَحَلْنَ الْعِيونا) .

أو يبق على حقيقته وظاهره ، وأن الولدان تطوف عليهم بالخور أيضاً ، لعرض أنواع اللذات عليهم من المأكول والمشروب والمنسكوح ، كما تأتي الخدام بالسراري للملوك ويعرضونهم عليهم . وإلى هذا ذهب أبو عمرو وقطرب وجوز جعله من الجر الجوارى . قيل : والفصل يأباه ويضعفه . وأما عطفه على (جَنَّتْ) بتقدير مضاف . أى هم في جنات ، ومصاحبة حور . فقال أبو حيان : هو فهم أعجمى ، فيه بُعد وتفكيك للكلام المرتبط ، وهو ظاهر . ومن عصبه فقد تعصب .

« كَأَمْثَلِ اللَّوْثِ الْمَكْنُونِ » أى صفاؤه كصفاء الدرّ في الأصداف الذى لا تمسه الأيدي . وأصل (الْمَكْنُونِ) الذى صين فى كنّ . « جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أى من الصالحات . « لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا » أى هذياناً وكلاماً غير مفيد ، باطلاً من القول . « وَلَا تَأْتِيَا » أى ما يؤثم من الفحش والكذب والغيبة وأمثالها . « إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا » قال القاشانى : أى قولاً هو سلام فى نفسه منزّه عن النقائص ، مبرأ عن الفضول والزوائد . أو قولاً يفيد سلامة السامع من العيوب والنقائص ، ويوجب سروره وكرامته ، ويبين كماله وبهجته ، لكون كلامهم كله معارف وحقائق ، وتحايا ولطائف ، على اختلاف وجهى الإعراب ، أى من كون (سَلَامًا) بدلا من (قِيلًا) ، أو مفعوله . والتكرير للدلالة على فشوة السلام بينهم وكثرته ، لأن المراد : سلاماً بعد سلام ، كقرأت النحو باباً باباً ، فيدل على تكرّره وكثرته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ)

[٢٨] (فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ)

[٢٩] (وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ)

[٣٠] (وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ)

[٣١] (وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ)

[٣٢] (وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ)

[٣٣] (لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ)

[٣٤] (وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ)

[٣٥] (إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنِشَاءً)

[٣٦] (فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا)

[٣٧] (عُرُبًا أَتْرَابًا)

[٣٨] (لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ)

[٣٩] (ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَى)

[٤٠] (وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ)

« وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ » أى : أى شىء هم ! أى هم شرفاء ، عظماء كرماء ، يتمتعون من أوصافهم فى السعادة « فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ » أى لا شوك له . أو موقر بالثمار « وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ » يعنى شجر الموز الذى نضد ثمره من أسفله إلى أعلاه . قال مجاهد : كانوا يعجبون بوج ، من طلحه وسدره . وشجرة الموز ثمرتها حلوة دسمة لذيدة لانوى لها « وَظِلٍّ مَّعْدُودٍ » أى ممتد منبسط لا يتقلص « وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ » أى مصبوب دائم الجريان « وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَا مَقْطُوعَةٍ » أى لا تنقطع عنهم متى أرادوها ، لكونها غير متناهية ، « وَلَا مَمْنُوعَةٍ » أى لا تمنع عن طالبها . والقصد مباينتها لفاكهة الدنيا ، فإنها تنقطع أحياناً ، كفاكهة الصيف فى الشتاء ، وتمتنع أحياناً لعزتها أو جذبها « وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ » أى مرتفعة فى منازلها ، أو على الأرائك للرقود والمضاجعة . وقد يؤيده تأثره بوصف من يضاعفهن

فيها . وهو قوله تعالى « إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْسَاءً » أى بديعا فائق الوصف . فالضمير يعود على ما فهم من السياق والسباق . وقيل : قد يكنى عن الحور بالفرش ، كما يكنى عنهن باللباس . فالضمير للمذكور على طريق الاستخدام ، إذ عاد إلى الفرش بمعنى النساء ، بعد إرادة معناها المعروف منها . وقيل : على طريق الحقيقة . أى مرفوعة على الأرائك ، كآية ^(١) (هُمُ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِئُونَ) « فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا » أى لم يطمئن . « عُرُبًا » جمع عرب ، وهى المتحبة إلى زوجها ، المحبوبة لتبعلها « أَتْرَابًا » أى على سن واحدة « لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ » متعلق بـ (أَنْشَأْنَا) أو (جَعَلْنَا) أو صفة لـ (أَبْكَارًا) أو خبر محذوف ، مثل هن . « ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ » أى جماعة وأمة من المتقدمين فى الإيمان ، ومن جاء بعدهم من التابعين لهم بإحسان من هذه الأمة . والكثرة ظاهرة لوفرة أصحاب اليمين فى أواخرهم دون السابقين ، كما بينا أولاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مِمَّا أَصْحَابُ الشِّمَالِ)

[٤٢] (فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ)

[٤٣] (وَضِلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ)

[٤٤] (لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ)

[٤٥] (إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ)

[٤٦] (وَكَانُوا يُصْرَثُونَ عَلَى الْغَنِيِّ الْعَظِيمِ)

[٤٧] (وَكَانُوا يَقُولُونَ إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَأَنَّا لَمَبْعُوثُونَ)

[٤٨] (أَوَّابًا وَأَنَّا الْأَوَّلُونَ)

« وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سَمُومٍ » أى حر نار ينفذ فى السام
« وَحَمِيمٍ » أى ماء متناهى الحرارة « وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ » أى من دخان أسود ، طبق
أهويتهم المردية ، وعقائدهم الفاسدة ، وهيات نفوسهم المسودة ، بالصفات المظلمة ، والهيات
السود الرديئة « لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ » أى ليس له صفتا الظل الذى يأوى إليه الناس من
الروح ، وتقع من يأوى إليه بالراحة ، بل له إيذاء وإيلام وضرر ، بإيصال التعب واللهب والكرب
« إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ » أى منهمكين فى اللذات والشهوات ، منغمسين فى الأمور
الطبيعية ، والفواشى البدنية ، فبذلك اكتسبوا هذه الهيات الموبقة ، والتبعات المهلكة .
« وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ » أى الذنب العظيم ، من الأقاويل الباطلة ،
والعقائد الفاسدة ، التى استحقوا بها العذاب المخلد ، والعقاب المؤبد . وفسره (السبكي)
بالقسم على إنكار البعث المشار إليه بقوله تعالى (١) « وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ
لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ » . قال الشهاب : وهو تفسير حسن ، لأن الحنث ، وإن فسر
بالذنب مطلقاً أو الذنب العظيم ، فالمعروف استعماله فى عدم البر بالقسم . ولذا تأثره بما كانوا
يعتقدونه من إنكار البعث بقوله « وَكَانُوا يَقُولُونَ أَبَدًا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا
أَنْنَا لَمَبْعُوثُونَ * أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] « قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ)

[٥٠] (لَجَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ)

[٥١] (ثُمَّ إِنَّكُمْ أَهْلُهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ)

[٥٢] (لَا كَلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِّنْ زُقُومٍ)

(١) [١٦ / النحل / ٣٨] .

[٥٣] (فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ)

[٥٤] (فَشَرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ)

[٥٥] (فَشَرِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ)

[٥٦] (هَذَا نُزْلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ)

« قُلْ إِنْ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ » أى معين عنده تعالى ، وهو يوم القيامة « ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ » أى الجاهلون المصرون على جهالاتهم ، والجاحدون للبعث . « لَا تَكُونُ مِنْ شَجَرٍ مِّنْ زَقُومٍ » وهو من أخبت شجر البادية فى المرادة ، وبشاعة المنظر ، وتتن الريح « فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ » أى من ثمراتها الوبيثة البشعة المحرقة « فَشَرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ » أى الماء الذى انتهى حره وغليانه . قال الزمخشري : وأنت ضمير الشجر على المعنى ، وذكره على اللفظ فى قوله (مِنْهَا) و (عَلَيْهِ) « فَشَرِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ » أى الإبل التى بها الهيام . وهو داء لا رى معه ، لشدة الشغف والكلب بها « هَذَا نُزْلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ » أى جزاؤهم فى الآخرة . وفيه مبالغة بديعة ، لأن النزل ما يبعد للقادم عاجلاً إذا نزل ، ثم يؤتى بعده بما هو المقصود من أنواع الكرامة ، فلما جعل هذا ، مع أنه أمر مهول ، كالنزل ، دلّ على أن بعده ما لا يطيق البيان شرحه . وجعله نزلاً ، مع أنه ما يكرم به الفازل ، متهمكاً ، كما فى قوله :

وكنا إذا الجبارُ بالجيش ضافناً جعلنا القنأ والمرهفات له نُزْلاً

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ)

[٥٨] (أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ)

[٥٩] (ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ)

[٦٠] (نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ)

[٦١] (عَلَىٰ أَنْ تُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ)

[٦٢] (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ)

« نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ » أى معشر قریش ، والمسکذین بالبعث ، فأوجدنا کم بشراً ، ولم تكونوا شيئاً « فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ » أى بالخلق . وهم ، وإن كانوا مقرین به لقوله ^(١) (وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) إلا أنه نزل منزلة العدم والإنكار ، لأنه إذا لم يقتن بالطاعة ، والأعمال الصالحة ، لا يعد تصديقاً . أو المعنى : فلولا تصدقون بالبعث ، فإن من قدر على الإبداء ، قدر على الإعادة « أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ » أى ماتقدفونه فى الرحم من النطف . « ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ » أى يجعله بشراً سويّاً « أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ » أى بإفاضة الصورة الإنسانية عليه . « نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ » أى كتبنا على كل نفس ذوقه . أى : ومن كان سبيله ذلك ، فشأنه أن يرهب من نزوله ، ويتأهب لما يخوف به من بعده . والجملة مقررة لما قبلها بإيدان أنهم فى قبضة القدرة ، فلا يغترون بالإمهال ، بدليل ما قدره عليهم من الموت . وفى قوله تعالى (بينكم) زيادة تنبيه ، كأنه بين ظهرانيهم ، ثم أكد ما قرره بقوله تعالى « وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ » أى بمغلولين « عَلَىٰ أَنْ تُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ » أى بعدمهلككم ، فنجى بآخرين من جنسكم « وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ » من صور وأشكال أخرى ، فكيف نعيجز عن إعادتكم ؟

قال الشهاب : والظاهر أن قوله (وَنُنشِئَكُمْ) المراد به إذا بدلنا کم بغيركم ، لافى الدار الآخرة ، كما توهم . وهذا كقوله تعالى ^(٢) (إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ) « وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ » أى أنه أنشأكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً ، فخلقكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة . « فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ » أى فتعرفون أن الذى قدر على هذه النشأة ، وهى البداءة ، قادر على النشأة الأخرى ، وهى الإعادة ، وأنها أهون عليه .

(١) [٣١ / لقمان / ٢٥] و [٣٩ / الزمر / ٣٨] . (٢) [٤ / النساء / ١٣٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُمُونَ)

[٦٤] (أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ وَأَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ)

[٦٥] (لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ)

[٦٦] (إِنَّا لَمُغْرَمُونَ)

[٦٧] (بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ)

« أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُمُونَ » أى ما تحرمون الأرض لأجله، وهو الحب . و(الحرث): شق الأرض للزراعة ، وإثارتها ، وإلقاء البذر فيها . « أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ » أى تنبتونه « أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ » أى المبتون . وعن بعض السلف أنه كان إذا قرأ هذه الآية وأمثالها يقول: بل أنت يارب! « لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا » أى أيسناه قبل استوائه واستحصاده . وأصل (الحطام) ما تحطم وتفتت لشدة يسه « فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ » أى تمجبون من هلاكه ويسه بعد خضرته . أو تندمون على اجتهدكم فيه الذى ضاع وخسر . أو (تفكهن) على ما أصبتم لأجله من المعاصي ، فتتحدثون فيه . و(التفكه) التنقل بصنوف الفاكهة ، وقد استعير للتنقل بالحديث ، لأنه ذو شجون . وقوله تعالى « إِنَّا لَمُغْرَمُونَ » مقول قولٍ مقدّر ، هو حال . أى قائلين ، أو يقولون : إنا لمغرمون . أى ملزمون غرامة ما أتقنا ، أو مهلكون لهلاك رزقنا . من (الغرام) بمعنى الهلاك ، قال^(١) :

إِنْ يَعْذِبُ يَكُنْ غَرَامًا وَإِنْ يَمْطُ جَزِيلًا فَإِنَّهُ لَا يُيَالِي
« بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ » أى حرمانا رزقنا .

(١) هذا هو البيت الخامس والأربعون من القصيدة رقم ١ من ديوان الأعشى، ومطلعها:

ما بكاه الكبير بالاطلالِ وسؤالى ! فهل تردّ سؤالى ؟

والرواية في الديوان (إن يعاقب) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ)

[٦٩] (أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ)

[٧٠] (لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ)

« أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ » يعنى العذب الصالح للشرب. « أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ » أى السحاب المعبر عنه بالسما في غير ما آية « أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ » أى لكم إلى قرار الأرض ، ومسلكوه بفابيع فيها . « لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا » أى ملحاً لا يصلح لشراب ولا زرع « فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ » أى نعمة الله عليكم في جعله عذباً فراناً ، لشربكم وزرعكم ، وصلاح معاشكم ومنافعكم .

لطيفة :

قال الإمام ابن الأثير في (المثل السائر) في النوع الحادى عشر من المقالة الثانية ، في بحث ورود لام التوكيد في الكلام ، وأنها لا تجىء إلا لضرب من المبالغة ، في سر مجىء اللام في قوله تعالى (لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا) دون قوله (جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا) ما مثاله :

أدخلت اللام في آية المطعوم ، دون آية المشروب . وإنما جاءت كذلك ، لأن جعل الماء العذب ملحاً ، أسهل إمكاناً في العرف والعادة . والوجود من الماء الملح ، أكثر من الماء العذب . وكثيراً ما إذا جرت المياه العذبة على الأراضي المتغيرة التربة ، أحوالها إلى الملوحة . فلم يحتج في جعل الماء العذب ملحاً ، إلى زيادة تأكيد . فلذلك لم تدخل عليه لام التأكيد المفيدة زيادة التحقيق . وأما المطعوم فإن جعله حطاماً من الأشياء الخارجة عن المعتاد ، وإذا وقع فلا يكون إلا عن سخط من الله شديد ، فلذلك قرن بلام التأكيد ، زيادة في تحقيق أمره ، وتقرير إيجاده . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧١] (أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ)

[٧٢] (ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ)

[٧٣] (نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرَةً وَنَمَتًا لِلْمُقْوِينَ)

[٧٤] (فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ)

« أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ » أى تقدحون. أى تستخرجونها من الزند، وهو العود الذى تقدح منه . « ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ » أى بل نحن جعلناها مودعة فى موضعها . وللعرب شجرتان : إحداها المرخ ، والأخرى الغفار ، إذا أخذ منها غصنان أخضران فحكَّ أحدهما بالآخر ، تباین من بينهما شرر النار. وقد تقدم بيانه فى آخر سورة يس . « نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرَةً » أى جعلنا نار الزناد تبصرة فى أمر البعث ، لأن من أخرج النار من الشجر الأخضر المضاد لها ، قادر على إعادة ماتفرقت مواده . أو تذكيراً لنار جهنم . « وَنَمَتًا » أى منفعة « لِلْمُقْوِينَ » أى المسافرين الذين ينزلون القواء ، وهى القفر . يقال : أقوى إذا نزل القواء ، كأصح إذا دخل الصحراء ، فإن الإفعال يكون للدخول فى معنى مصدر مجرده .

وعن مجاهد : (المقوين) المستمعين ، المسافرين والحاضر .

وعن ابن زيد : هم الجائعون . تقول العرب : أقوى منه كذا وكذا ، أى : ما أكلت منه . وأقوت الدار : خلت من ساكنيها وانتفاعهم بها ، لأنهم يطبخون بها . ولشدة احتياجهم لها ، خصوا بالذكور مع انتفاع غيرهم بها .

« فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ » أى سبح اسمه . قال الزخشرى : بأن تقول : سبحان الله ، إما تنزيها له عما يقول الظالمون الذين يجحدون وحدانيته ، ويكفرون نعمته .

وإما تعجباً من أمرهم في غمط آلائه وأياديه الظاهرة . وإما شكراً لله على النعم التي عدها
ونبه عليها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ)

[٧٦] (وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

[٧٧] (إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ)

[٧٨] (فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ)

[٧٩] (لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ)

« فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ » أى منازل الكواكب ومراكزها البهيجة في
السماء . أو بمساقطها ومغاربها ، وهى أوقات غيبتها عن الحواس . أو بمساقطها وانتشارها يوم
القيامة . و (لا) فى (لا أقسم) إما مزيدة للتأكيد ، وتقوية الكلام ، وقد عهدت زيادتها
فى كلامهم ، كما أوضحه فى (فقه اللغة) . وإما (لا أقسم) بتامها صيغة من صيغ القسم ، على
ما ارتضاه بعض المحققين . « وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ » أى لما فى القسم من الدلالة على
عظيم القدرة ، وكمال الحكمة . « إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ » أى له كرم وشرف وقدر رفيع ،
لاشتماله على أمهات الحكم والأحكام ، وما تنطبق عليه حاجات الأنام على الدوام « فِي كِتَابٍ
مَكْنُونٍ » أى محفوظ مصون ، لا يتغير ولا يتبدل . أو محفوظ عن ترداد الأيدى عليه ،
كغيره من الكتب ، بل هو كالدر المصون إلا عن أهله ، كما قال « لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ »
اعلم أن فى الآية أقوالاً عديدة ، مرجعها إلى أن المسبح مجاز أو حقيقة ، وأن الضمير عائد
للكتاب بمعنى الوحي المتلقى ، أو المصحف ، وأن (المطهرون) هم الملائكة ، أو المتقون ،
أو المتطهرون من الأحداث والأخبار . وذلك لاتساع ألفاظها الكريمة ، لما ذكر بطريق
الاشتراك أو الحقيقة والمجاز . وهاك ملخص ذلك ولبابه :

فأما أكثر المفسرين ، فعلى أنه عني بالآية الملائكة . فنفيُ مسّه كناية عن لازمه ، وهو نفي الاطلاع عليه ، وعلى ما فيه . والمراد بـ (المطهرين) حينئذ إما جنس الملائكة ، أو من نزل به وهو روح القدس . وطهارتهم نقاء ذواتهم عن كدورات الأجسام ، وذنس الهيولى ، أو عن المخالفة والعصيان .

وقال ابن زيد : زعمت كفار قريش أن هذا القرآن نزلت به الشياطين ، فأخبر الله تعالى أنه (لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ) كما قال ^(١) (وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَظِيمُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ) انتهى . قال ابن كثير : وهذا القول قول جيد .

وقال الفراء : لا يجد طعمه ونفعه إلا من آمن به . ومثله قول محمد بن الفضل : لا يقرؤه إلا الموحدون .

فنفيُ مسّه كناية عن ترك تقبله ، والاهتداء به ، والعناية به ، فإن مسّ الشيء سبب حب المموس ، وأثر الإقبال عليه ، ورائد الانصياع له . والطهارة حينئذ هي نظافة القلب من دنس الشرك والنفاق ، والملكات الرديئة ، والغرائز الفاسدة .

وقال آخرون : عني بـ (المطهرين) المتطهرون من الجفابة والحدث . قالوا : ولفظ الآية خبر ، ومعناها النهي ، إشارة إلى أن تلك الصفة طبيعة من طبائمه ، ولازم من لوازمه ، لشرفه وعظم شأنه .

قالوا : والمراد بـ (الكتاب) المصحف ، واحتجوا بما رواه الإمام مالك في موطئه عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ؛ أن في الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لعمر بن حزم ، أن لا يمس القرآن إلا طاهر . وبما روى الدارقطني في قصة إسلام عمر ؛ أن أخته قالت له قبل أن يسلم : إنه رجس و (لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ) إلا أن فيهما مقالا

(١) [٢٦ / الشعراء / ٢١٠ - ٢١٢] .

بينه الحافظ ابن حجر في (تلخيص الحبير) وأشار له ابن كثير أيضاً . ومع ذلك فالدلالة ليست قطعية . وقد أوضح ذلك الشوكاني في (نيل الأوطار) وعبارته :

(الطاهر) يطلق بالاشتراك على المؤمن - والطاهر من الحدث الأكبر والأصغر - ومن ليس على بدنه نجاسة . ويدل لإطلاقه على الأول قول الله تعالى (١) : (إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ) وقوله ﷺ لأبي هريرة (٢) : المؤمن لا ينجس . وعلى الثاني (٣) (وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَرُوا) وعلى الثالث : قوله (٤) ﷺ في المسح على الخفين : دعمهما فإني أدخلتهما طاهرتين . وعلى الرابع : الإجماع على أن الشيء الذي ليس عليه نجاسة حسية ولا حكمة يسمى طاهراً . وقد ورد إطلاق ذلك في كثير . فنأجاز حمل المشترك على جميع معانيه ، حملة عليها هنا . والمسألة مدونة في الأصول ، وفيها مذاهب . والذي يترجح أن المشترك يحمل فيها ، فلا يعمل به حتى يبين . وقد وقع الإجماع على أنه لا يجوز للمحدث حدثاً أكبر أن يمس المصحف . وخالف في ذلك داود . استدلل المانعون للجنب بقوله تعالى : (لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ) وهو لا يتم إلا بعد جعل الضمير راجعاً إلى القرآن ، والظاهر رجوعه إلى الكتاب ، وهو اللوح المحفوظ ، لأنه الأقرب . و (المطهرون) الملائكة . ولو سلم عدم الظهور ، فلا أقل من الاحتمال ، فيمتنع العمل بأحد الأمرين ، ويتوجه الرجوع إلى البراءة الأصلية . ولو سلم رجوعه إلى القرآن على التعيين ، لكانت دلالاته على المطلوب ، وهو منع الجنب من مسه ، غير مسلمة . لأن المطهر من ليس بنجس ، والمؤمن ليس بنجس دائماً ، لحديث : المؤمن لا ينجس . وهو متفق عليه . فلا يصح حمل المطهر على من ليس بجنب أو حائض أو محدث أو متنجس بنجاسة عينية ، بل يتعين حملة على من ليس بمشرك ، كما في قوله تعالى : (إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ) لهذا الحديث ، ولحديث النهي عن السفر بالقرآن إلى أرض العدو . ولو

(١) [٩ / التوبة / ٢٨] . (٢) أخرجه البخاري في : ٤ - كتاب النسل ،

٢٣ - باب عرق الجنب وأن المؤمن لا ينجس ، حديث ٢٠٤ . (٣) [٥ / المائدة / ٦] .

(٤) أخرجه البخاري في : ٤ - كتاب الوضوء ، ٤٩ - باب إذا أدخل رجله وهما

طاهرتان ، حديث رقم ١٤٥ ، عن المغيرة .

سلم صدق اسم (الطاهر) على من ليس بمحدث حدثاً أكبر أو أصغر . فقد عرفت أن الراجح كون المشترك مجملًا في معانيه ، فلا يعين حتى يبين . وقد دل الدليل ههنا أن المراد به غيره ، الحديث (المؤمن لا ينجس) . ولو سلم عدم وجود دليل يمنع من إرادته ، لكان تعيينه محل النزاع ترجيحاً بلا مرجح ، وتعيينه لجميعها استعمالاً للمشارك في جميع معانيه ، وفيه الخلاف . ولو سلم رجحان القول بجواز الاستعمال للمشارك في جميع معانيه ، لما صح ، لوجود المانع ، وهو حديث : المؤمن لا ينجس . واستدلوا أيضاً بحديث عمرو بن حزم المتقدم ، وأجيب بأنه غير صالح للاحتجاج . لأنه من صحيفة غير مسموعة ، وفي رجال إسناده خلاف شديد ، ولو سلم صلاحيتها للاحتجاج ، لعاد البحث السابق في لفظ (طاهر) وقد عرفته .

قال السيد العلامة محمد بن إبراهيم الوزير : إن إطلاق اسم النجس على المؤمن الذي ليس بطاهر من الجنابة أو الحيض أو الحدث الأصغر ، لا يصح لاحقية ولا مجازاً ولا لغة . صرح بذلك في جواب سؤال ورد عليه . فإن ثبت هذا فالؤمن طاهر دائماً ، فلا يتناول الحديث ، سواء كان جنباً أو حائضاً أو محدثاً ، أو على بدنه نجاسة .

فإن قلت : إذا تم ما تريد من حمل (الطاهر) على من ليس بمشرك ، فما جوابك فيما ثبت في المتفق عليه من حديث ابن عباس ^(١) أنه عليه السلام كتب إلى هرقل عظيم الروم : أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين . و ^(٢) (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ ..) إلى قوله : (مُسْلِمُونَ) مع كونهم جامعين بين نجاستي الشرك والاجتناب ووقوع اللبس منهم له معلوم ؟

قلت : أجعله خاصاً بمثل الآية والآيتين ، فإنه يجوز تمكين المشرك من مس ذلك المقدار ، لمصلحة ، كدعائه إلى الإسلام . ويمكن أن يجاب عن ذلك بأنه قد صار باختلافه بغيره

(١) أخرجه البخاري في : ١ - كتاب بدء الوحي ، ٦ - حدثنا أبو اليمان الحكم

ابن نافع ، حديث رقم ٧ . (٢) [٣ / آل عمران / ٦٤] .

لا يحرم لمسه ، ككتب التفسير ، فلا تخصص به الآية والحديث . إذا تقرر لك هذا ، عرفت عدم انتهاض الدليل على منع من عدا المشرک . وقد عرفت الخلاف في الجنب . وأما الحديث حدثاً أصغر ، فذهب ابن عباس والشعبي والضحاك وزيد بن عليّ والمؤيد بالله والهادوية وقاضي القضاة وداود إلى أنه يجوز له مس المصحف . وقال القاسم وأكثر الفقهاء والإمام يحيى : لا يجوز . واستدلوا بما سلف ، وقد سلف ما فيه . انتهى كلام الشوكاني .

تنبيه :

في لطف دلالة هذه الآية وما تشير إليه من العلم المكنون قال الإمام ابن القيم في (أعلام الموقعين) في مباحث أمثال القرآن الكريم ، ما مثاله : الواجب فيما علق عليه الشارع الأحكام من الألفاظ والمعاني ، أن لا يتجاوز بألفاظها ومعانيها ، ولا يقصر بها ، ويعطى اللفظ حقه ، والمعنى وقد مدح الله تعالى أهل الاستنباط في كتابه ، وأخبر أنهم أهل العلم . ومعلوم أن الاستنباط إنما هو استنباط المعاني ، والعلل ، ونسبة بعضها إلى بعض ، فيعتبر ما يصح منها بصحة مثله وشبهه ونظيره ، ويلغى ما لا يصح ، هذا الذي يعقله الناس من الاستنباط .

قال الجوهرى : الاستنباط كاستخراج . ومعلوم أن ذلك قدر زائد على مجرد فهم اللفظ ، فإن ذلك ليس طريقة الاستنباط ، إذ موضوعات الألفاظ لا تنال بالاستنباط ، وإنما تنال به العلل والمعاني والأشياء والنظائر ، ومقاصد المتكلم . والله سبحانه ذم من سمع ظاهراً مجرداً فأذاعه وأفشاه ، وحمد من استنبط من أولى العلم حقيقته ومعناه . يوضحه أن الاستنباط استخراج الأمر الذي من شأنه أن يخفى على غير مستنبطه . ومنه استنباط الماء من أرض البئر والعين . ومن هذا قول^(١) عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه ، وقد سئل : هل خصم رسول الله ﷺ بشيء دون الناس ؟ فقال : لا ، والذي فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، إلا فهمما

(١) أخرجه البخارى في : ٥٦- كتاب الجهاد ، ١٧١- باب فكاك الأسير ، حديث ٩٥

يؤتيه الله عبداً في كتابه ! ومعلوم أن هذا الفهم قدر زائد على معرفة موضوع اللفظ وعمومه أو خصوصه ، فإن هذا قدر مشترك بين سائر من يعرف لغة العرب ، وإنما هذا فهم لوازم المعنى ونظائره ، ومراد التكلم بكلامه ، ومعرفة حدود كلامه ، بحيث لا يدخل فيها غير المراد ولا يخرج منها شيء من المراد . وأنت إذا تأملت قوله تعالى ^(١) : (إِنَّهُ وَلَقَدْ أَنْ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ) وجدت الآية من أظهر الأدلة على نبوة النبي ﷺ ، وأن القرآن جاء من عند الله وأن الذي جاء به روح مطهرة ، فما للأرواح الخبيثة عليه سبيل ، ووجدت الآية أخت قوله ^(٢) (وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَظِيمُونَ) ووجدتها دالة بأحسن الدلالة على أنه لا يس المصحف إلا طاهر ، ووجدتها دالة أيضاً بالطف الدلالة على أنه لا يجد حلاوته وطعمه إلا من آمن به ، وعمل به ، كما فهمه البخاري من الآية ، فقال في صحيحه في باب ^(٣) (قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا) : (لَا يَمَسُّهُ -) لا يجد طعمه ونفقه إلا من آمن بالقرآن ، ولا يحمله بحقه إلا المؤمن لقوله ^(٤) (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً) وتجد تحته أيضاً : لا ينال معانيه ويفهمه كما ينبغي ، إلا القلوب الطاهرة ، وإن القلوب النجسة ممنوعة من فهمه ، مصروفة عنه . فتأمل هذا السبب القريب ، وعقد هذه الأخوة بين هذه المعاني وبين المعنى الظاهر من الآية ، واستنباط هذه المعاني كلها من الآية بأحسن وجه وأبينه . فهذا من الفهم الذي أشار إليه على رضي الله عنه . انتهى .

(١) [٥٦ / الواقعة / ٧٧ - ٧٩] . (٢) [٢٦ الشعراء / ٢١٠] .

(٣) [٣ / آل عمران / ٩٣] . (٤) [٦٢ / الجمعة / ٥] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ)

[٨١] (أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ)

[٨٢] (وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ)

« تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ » أى الذى رباهم بالكمالات، وهداهم إليها بتنزيلها منه .
« أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ » يعنى القرآن الذى قص عليكم نغامة شأنه ، وعظمة مقداره .
« أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ » . قال ابن جرير^(١) : أى تليفون القول للكاذبين ، ممالأة منكم لهم على التكذيب به والكفر . وأصل (الإدهان) - كما قال الشهاب - جمل الأديم ونحوه مدهوناً بشيء من الدهن . ولما كان ذلك مليناً له محسوساً ، أريد به اللين المعنوى . على أنه تجوز به عن مطلق اللين ، أو استعير له . ولذا سميت المداراة والملاينة ، مدهانة . وهذا مجاز معروف ، ولشهرته صار حقيقة عرفية ، فلذا تجوز به هنا عن التهاون أيضاً ، لأن التهاون بالأمر ، لا يتصلب فيه . « وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ » أى شكر رزقكم إياه تكذيبكم به ، كفراً لنعمته ، وجحداً لمنته .

قال ابن جرير^(١) : أى وتجعلون شكر الله على رزقه إياكم ، التكذيب . وذلك كقول الفائل لآخر : جعلت إحسانى إليك إساءة منك إلى ، بمعنى جعلت شكر إحسانى ، أو ثواب إحسانى إليك ، إساءة منك إلى .

وقد ذكر عن الميمم بن عدى : أن من لغة أزدشنوءة (مارزق فلان) بمعنى ما شكر . انتهى .

وقد حمل بعضهم (الرزق) هنا على النعمة مطلقاً ، والأظهر أنه نعمة القرآن ، للسياق .

(١) انظر الصفحة رقم ٢٠٧ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وقال القاشاني : أى وتجعلون قوتكم القلبي ورزقكم الحقيقي ، تكذيبه ، لاحتجابكم بعلومكم ، وإنكاركم ما ليس من جنسه ، كإنكار رجل جاهل ما يخالف اعتقاده ، كأن علمه نفس تكذيبه . أو رزقكم الصوري . أى لداومتكم على التكذيب ، كأنكم تجعلون التكذيب غذاءكم . كما تقول للمواظب على الكذب : الكذب غذاؤه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْخُلُقُومَ)

[٨٤] (وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ)

[٨٥] (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ)

« فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ » أى النفس ، لدلالة الكلام عليها « الْخُلُقُومَ * وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ » أى حالة نزعها ، أو تنتظرون لفظه النفس الأخير . والخطاب لمن حول المحتضر . « وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ » قال جمهور السلف : يعنى ملك الموت أدنى إليه من أهله ، ولكن لا تبصرون الملائكة . أو لا تدركون كنهه ما يقاسيه . وبعضهم فسر القرب بالعلم والقدرة . وتقدم بسط الأقوال ، وترجيح الأول فى تفسير آية^(١) (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) فى سورة (ق) فارجع إليه فإنه مهم . وهذه الجملة معترضة ، أو حالية كالتى قبلها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ)

[٨٧] (تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

(١) [٥٠ / ق / ١٦] .

[٨٨] (فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ)

[٨٩] (فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ)

[٩٠] (وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ)

[٩١] (فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ)

[٩٢] (وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ)

[٩٣] (فَتَنَزَّلُ مِنْ حَمِيمٍ)

[٩٤] (وَتَصْلِيَةٌ جَهِيمٍ)

[٩٥] (إِنْ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ)

[٩٦] (فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ)

« فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ » أى غير مجزيين يوم القيامة . أو مملوكين مقهورين . من (دانه) أذله واستعبده . « تَرَوْهُمْ ذُحَاهَا » أى تردون النفس إلى مقرها عند بلوغها الحلقوم « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » أى فى أنكم غير مسوسين ، مربوبين مقهورين . يعنى أنكم مجبرون عاجزون تحت قهر الربوبية ، وإلا لأمكنكم دفع ماتكروهون أشد الكراهية ، وهو الموت . « فَأَمَّا إِنْ كَانَ » أى الميت « مِنَ الْمُقَرَّبِينَ » أى السابقين من الأصناف الثلاثة المذكورة فى أول السورة « فَرَوْحٌ » أى فله راحة « وَرَيْحَانٌ » أى رزق طيب ، أو شجر ناضر يتفياً ظلاله « وَجَنَّتُ نَعِيمٍ » أى يتفعم فيها مما تشبهه الأنفس ، وتلذ الأعين « وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ » .

قال ابن كثير : أى تبشرهم الملائكة بذلك . تقول لأحدهم : سلام لك ، أى لا بأس عليك أنت إلى سلامة ، أنت من أصحاب اليمين .

وقال قتادة وابن زيد : سلم من عذاب الله ، وسلمت عليه ملائكة الله ، كما قال عكرمة : تسلم عليه الملائكة ، وتخبره أنه من أصحاب اليمين . وهذا معنى حسن . ويكون ذلك كقول الله تعالى ^(١) (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ...) الآيات . انتهى .

وقال الرازي : في السلام وجوه :

أولها - يسلم به صاحب اليمين ، على صاحب اليمين كما قال تعالى ^(٢) من قبل : (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا) .

ثانيها - (فَسَلِّمْ لَكَ) أى سلامة لك من أمرٍ خاف قلبك منه ، فإنه في أعلى المراتب . وهذا كما يقال لمن تعلق قلبه بولده الغائب عنه ، إذا كان يخدم عند كريم : كن فارغاً من جانب ولدك ، فإنه في راحة .

ثالثها - أن هذه الجملة تفيد عظمة حالهم ، كما يقال : فلان ناهيك به ، وحسبك أنه فلان . إشارة إلى أنه ممدوح فوق حد الفضل . انتهى .

ثم قال الرازي : والخطاب بقوله (لَكَ) يحتمل أن يكون للنبي ﷺ ، وحينئذ فيه وجه ، وهو ما ذكرنا أن ذلك تسليّة لقلب النبي ﷺ ، فإنهم غير محتاجين إلى شيء من الشفاعة وغيرها . فسلام لك يا محمد منهم ، فإنهم في سلامة وعافية ، لا يهيمك أمرهم . أو فسلام لك يا محمد منهم ، وكونهم ممن يسلم على محمد صلى الله عليه وسلم دليل العظمة ، فإن العظيم لا يسلم عليه إلا عظيم . انتهى .

« وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ » أى بآيات الله « الضَّالِّينَ » أى الجائرين عن سبيله . « فَزُلْ مِنْ حِمِيمٍ » أى ماء انتهى حرّه ، فهو شرابه « وَتَصْلِيَةٌ جَهِيمٍ » أى إحراق بالنار « إِنْ هَذَا » أى المذكور من أحوال الفرق الثلاثة وعواقبهم « لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ »

أى حقيقة الأمر ، وجلية الحال ، لا لبس فيه ولا ارتياب . والإضافة إما من إضافة الموصوف إلى الصفة ، أى الحق اليقين ، كما يقال : دار الآخرة ، والدار الآخرة ؛ أو بالعكس ، أى اليقين الحق . أو من إضافة العام للخاص ، أى كعلم الأمر اليقين . فالإضافة حينئذ لامية ، أو بمعنى (من) .

تنبيه :

فى (الإكليل) : استدل بالآيات هذه على أن الروح بعد مفارقة البدن ، منعمة أو معذّبة ، وعلى أن مقر أرواح المؤمنين فى الجنة ، وأرواح الكافرين فى النار .
« فَسَبِّحْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ » أى نزهه عما يصفونه به من الأباطيل ، وما يتفوهون به من الأضاليل ، قولاً وعملاً .